الدراسات اللسانية الحديثة

جذور وامتدادات

أ. الشريف ميهوبي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جـــامعة باتنـــة

إن جذور الدرس اللساني تمتد إلى عهود سحيقة في القدم، يؤرخ لها الدارسون بفترات تعود إلىماقبل الميلاد بقرون عديدة؛ وذلك لأن اهتمام الإنسان القديم بمعرفة لغته والبحث عن أصلها، وطبيعتها، وطرق استعمالها، كانت له أسباب عدة منها ماهو ديني، ومنها ماهو قومي، أو اجتماعي، أوسياسي. ولعل أهم هذه الأسباب وأقواها، هو الجانب الديني؛ لأن معظم الدراسات اللسانية كانت مرتبطة بالدين والعقيدة من أجل خدمة الدين، والاعتناء بنصوصه المقدسة، والقيام بشرحها، وفهمها الفهم الصحيح، وهذا ما نلحظه عند الأمم القديمة حيث كان اهتمامهم باللغة يرجع إلى أسباب دينية؛ فقد كانت دراسة النصوص الدينية البوذية وغيرها سببا في نشأة المعاجم الصينية عند الصينيين، كما كانت دراسة الشعر الحماسي والديني عند اليونان من بين أسباب التأليف اللساني الذي نشأ في أحضان الفلسفة، وظل يحتل جزءا منها لمدة غير قصيرة، حيث تناول الفلاسفة بالبحث اللغة ومشكلاتها، ولعل أهم ما أثار الجدل بين الفلاسفة في ذلك الوقت هو؛ أصل اللغة وطبيعتها، وكذلك العلاقة بين الأشياء ومسمياتها. وقد استمر النقاش والجدل حول هذه القضايا وغيرها، قرونا عديدة كما تسجله كتب الفلاسفة اليونان القدماء، من أفلاطون (ق5ق.م) إلى أرسطو **(ق4ق.م)** ومن جاء بعدهما .

وكانت نتيجة هذا النقاش، قد أعطت تحليلا عميقا، وإثراء للغة اليونانية من شتى جوانبها، كما أسفرت في النهاية عن وضع نظام نحوي يناسب لغتهم ويضبط قواعدها.(1)

وقد كان إنتشار اللغة اليونانية خارج موطنها الأصلي، وما نتج عنه تبعا لذلك من فروق لغوية، بين النطق الأصلي لليونانية، ونطق الشعوب التي أصبحت تتكلمها؛ من بين أسباب اهتمام علماء اليونان، بدراسة اللغة ومشكلاتها وذلك من أجل المحافظة على اليونانية الكلاسيكية، التي تمثلها لغة العظماء من الكتاب الكلاسيكيين، وأصبحت بذلك الإلياذة والأوديسا لهوميروس، نماذج تعليمية تتبع. ومن هذا المنطلق فقد كانت دراساتهم وصفية معيارية، وصفية من جهة أنهم وصفوا الواقع اللغوي كما هو، في المناطق التي تتحدث اليونانية، ومعيارية من جهة أنهم اتخذوا النماذج الأدبية الكلاسيكية، أمثلة ينبغي أن تحتذى في كل شيء من حيث خصائصها اللغوية، وتراكيبها النحوية.(2)

وقد حذا النحاة الرومان حذو أسلافهم في اليونان، فقد ظلت النظرة الفلسفية للغة، والدراسة الأدبية التي تهتم بالنصوص لخدمة أهداف وضرورات النقد الأدبي، سائدة، ومن أشهرنحاة اللاتينية المتقدمين، الذي يمكن أن يشارإليه اللغوي"فارو"varro (ق1ق.م).(3)

كما كانت دراسة اللغة عند الهنود، منطلقة من أسباب دينية، حيث أعطوا اللغة السنسكريتية جل اهتمامهم، بوصفها اللغة المقدسة لدينهم، وذلك لخدمة نصوصهم المقدسة، المسماة "الفيدا" فحاولوا ضبط قواعدها، ووصف الظواهر اللغوية بها وصفا دقيقا، حتى تحتفظ هذه اللغة بصفائها ونقائها، وألا يحدث فيها تغيير بمرور الزمن، أو تفسد بمخالطتها للهجات أخرى، وأشهر من كتب في نحو هذه اللغة العالم النحوي "بانينى" Panini (ق 3 ق.م).(4)

وقد مرت الدراسات اللسانية بعد هذا، بمرحلة من الركود، أعقبتها دراسة واعية على يد دارسي العربية من علماء العرب والإسلام. وقد كان القرآن الكريم سبيلهم وغايتهم، فيما قاموا به من دراسات لغوية؛ لأن تلك الدراسات لم تقم إلا لخدمته، وكان حظ العربية أنها لغة القرآن الكريم، ولولاه لصار أمرها إلى زوال، ولأصبحت كغيرها من اللغات المندثرة كاللاتينية، والسنسكريتية.(5)

وقد كانت الغيرة على كتاب الله الكريم، وصون الألسنة من أي خطأ أو تحريف يمس به، سببا في وجود ما خلفه لنا السلف من جهود جبارة، وطرقوا فيها كل مسلك يسهل لهم فهم النص القرآني، ويساعد على شرحه وتفسيره، وضبط نصوصه، فاستخرجوا قواعدها النحوية والصرفية والصوتية، والمعجمية، والبلاغية.(6)

وقد كانت بداية الاهتمام بدراسة العربية، على يد العالم المسلم أبي الأسود الدؤلي (ت:69هـ) حسب ما تذكره الروايات عن المحاولة الأولى التي قام بها لنقط المصحف ولوضع قواعد النحو العربي. ثم عمق هذه الرسالة من جاءوا بعده، وعلى رأسهم الخليل بن أحمد (ت: 175هـ)، وتلميذه سيبويه (ت:180هـ) صاحب (الكتاب)؛ الذي كان شاملا لكل الاهتمامات اللغوية والنحوية في ذلك العصر.(7)

وهكذا كان الهدف الذي قامت من أجله الدراسات اللغوية العربية، دينيا، كما كان عند الأمم الأخرى.

وإذا كانت الدراسات اللسانية العربية في هذه الفترة، قد بلغت قمة مجدها وازدهارها عند العرب. فإن الدراسات اللسانية في الغرب، كانت في سكون تام، حتى كان عصر النهضة الذي فتح فيه باب الاتصال بين العرب والغرب، فتفتح الغرب علىالعرب واتجه علماؤه لدراسة اللغات الشرقية، وفي مقدمتها العربية والعبرية، وقاموا بمقارنتها باللاتينية، وغيرها من اللغات الأوربية التي ظلت مهملة لمدة طويلة، كالأسبانية، والإيطالية، والفرنسية وكذلك الإنجليزية والألمانية. وقد لاقت هذه اللغات اهتماما كبيرا، من الدارسين، خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين.(8)

وقد نتج عن الاهتمام بدراسة اللغات القومية الأوربية، اتجاهان، اتجاه تجريبي جديد، يعتمد في دراسته على اللغات القومية الأوربية، ويخالف الاتجاه التجريبي القديم، الذي كان يعتمد فيه نحاة اليونان واللاتين، على اللغتين الكلاسيكيتين فقط، اليونانية واللاتينية. وأهم ما يميز الاتجاه التجريبي الجديد في عصر النهضة، هو أنه يرى أن لكل لغة خصائصها التي تفترق بها عن خصائص غيرها من اللغات الأخرى.(9)

كما ظهر إلى جانب الاتجاه التجريبي اتجاه لغوي آخر, اعتمد الفلسفة العقلية وهو ما يسمى ب"النحو العالمي"، وقد أسس هذه الفلسفة "العقلية" Rationalisme الفيلسوف الفرنسي "رينيه ديكارت"Réné Descartes، في القرن السابع عشر، ثم واصل تلاميذه وأتباعه هذا الاتجاه وتوسعوا فيه. ويرى هذا الاتجاه أن نظرية المعرفة تقوم في الأساس على التفكير المنطقي و العقل الإنساني وهما مصدر كل المعارف. كما يرى أن الإنسان هو الكائن الحي الوحيد الذي يمتلك المقدرة اللغوية التي تمكنه من التعبيرعن أفكاره ومعارفه في جمل منطوقة أو مكتوبة، وإبلاغها للآخرين وهذه المقدرة هي ما يميزه عن الحيوان. وما ألفاظ اللغة إلا رموز للمحتوى الفكري.(10)

كما يرى أصحاب هذا الاتجاه أنه إذا كان النحو هو العلم الذي يتناول قوانين اللغة فإن العلم الذي يتناول قوانين الفكر، هو المنطق. وإذا كانت نظم الفكر متشابهة عند كل الناس فإنه لا يوجد إلا منطق واحد، وما دامت اللغة ترتبط بالمنطق ـ في رأيهم ـ فإن هناك لغة عالمية، وبالتالي يمكن أن يكون نحو عالمي يتضمن قواعد اللغات.

وقد تنوعت الدراسات عند أصحاب هذا الاتجاه، فمنهم من يهدف إلى إيجاد لغة مطابقة للفكر، في قواعدها ونظمها، متحررة من أي تناقص أو غموض موجود في اللغات الطبيعية، ليسهل فمهما، وتكون وسيلة عامة لتبليغ المعارف العلمية. وإيجاد مثل هذه اللغة العالمية يقوم على أساس اعتقادهم بوجود نحو يشبه المنطق في عالميته. ومنهم من يهدف إلى وصف قواعد اللغات بناء على أساس علمي منطقي. يتخذ من التراكيب المتشابهة في كل اللغات أساسا لوصفها، ويستغني بذلك عن كل الخلافات الأخرى التي تعوق عمل مثل هذا النحو العالمي.(11)

ولعل أهم ما ألف في هذا الاتجاه، هو ما يسمى نحو "بور رويال" port royal، الذي جاء تحت عنوان: "النحوالعالمي والعقل" Grammaire Générale et Raisonnée سنة (1662م)، وكان من تأليف "انطوني أرنولد" Antoine Arnauld (1613-1694م) و"بيير نيكولا" Pierre Nicolas (1625-1695م). وقد تأثر هذا النحو بدرجة كبيرة بأفكار"ديكارت". وهو يرى أن الأفكار تتحول إلى تعبيرات منطوقة في الكلام الإنساني، من خلال الرموز، وهذه الرموز ترجع إلى جانبين؛ جانب فيزيائي طبيعي؛ وعندئذ ينظر إلى هذه الرموز على أنها أصوات منطوقة، أو رموز مكتوبة

يستخدمهما الإنسان ليرمز بهاإلى أفكاره. وجانب كيفي؛ يتمثل في الكيفية التي ينتهجها الإنسان بمساعدة تلك الرموزفي التعبيرعن أفكاره.(12)

وكان لنحو "بور رويال" تأثير كبير في مجموعة من المؤلفات التي ظهرت فيما بعد، حيث ظهر في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي، في فرنسا، وفي غيرها مجموعة من المؤلفات تحمل اسم "النحو العالمي"، وتعد امتدادا لنحو "بور رويال".

ولقد أثر النحو العالمي، وفلسفته العقلية، بدرجة كبيرة على عدد من المدارس النحوية، في القرنين الثامن عشروالتاسع عشر الميلاديين.إلى جانب أنه يعد أساسا تاريخيا لعددكبير من النظريات اللسانيات الحديثة.ولعل أكثرهذه النظريات تأثرابه نظرية"النحوالتوليدي التحويلي" التي وجدت في النحو العالمي والفلسفة العقلية جوانب أساسية اعتمدت عليها،كما يبدو في صياغة هذه النظرية،في مؤ لفات "تشومسكي"* وعلى رأسها كتابه الذي ألفه عام(1965م) "معالم النظرية التركيبية" Aspects de la théorie syntaxique_ وكتابه الذي ألفه عام (1966م) "علم اللغة الديكارتي" Linguistique cartésienne_ حيث وجد تشومسكي(في فكرة فعالية الكائن المفكر (الإنسان) - التي تعد ركنا هاما في نظرية اللغة العالمية - أساسا لإدراكه الخاص بمقدرة الخلق أو التوليدعند الإنسان،حيث تمكنه من إنتاج عدد غير محدودمن جمل لغته، وأن يفهمها، بناء على عدد محدود من الوحدات اللغوية، وبناء على نظام معروف، كما اعتمد تشومسكي على المقابلة بين التعبيرات اللغوية الفعلية،والتركيب المنطقي الكامن في نظرية نحو "بورروبال" في تمييزه بين التركيب السطحي والتركيب العميق).(13)

وما يمكن أن يقال بوجه عا م، عن الدراسات اللسانية القديمة، هو أنها كانت مقتصرة علىاللغات المكتوبة دون غيرها، والتي تمثل النصوص الدينية أوالأدبية الراقية، كالشعر مثلا.

أما اللغات المنطوقة فلم تكن في الحسبان، حيث لم يهتموا بدراستها، وإن صادف واستشهدوا بها، فإنما كان ذلك من أجل الحكم عليها بالانحراف أو الفساد، أو التنبيه إلى عدم محاكاتها وإتباعها، وقد بلغ حرصهم في ذلك أن قسموا العهود

اللغوية الى عهود محمودة وأخرى مذمومة، فنجد مثلا، اليونان والرومان يصفون لغات عهد "بريكلاس" و"شيشرون" على أنها هي المحمودة دون غيرها، وهي الجديرة بالدراسة.أما عند العرب فقدتم تحديدعصورالاستشهاد بلغة القرنين الأول والثاني للهجرة في الأمصار،ولغة القرون الأربعة الأولى للهجرة في البوادي.كما عُدَّ القرن السابع عشر الميلادي هو القرن المبجل للغة الفرنسية، لأنه قرن"اللغة الجميلة"كما وصفها"فوجلاس"Vaugelas (14).

فقد كان القدامى يرون وجوب بقاء اللغة نقية صافية فصيحة، وبالتالي ثابتة، كما كان كل فريق منهم يفضل لغته ويرى فيها المثل الأعلى لكل كلام بشري. وهذه النظرة إلى اللغة، وهذا التصور لها، جعلهم يهملون دراسة المظاهر التطورية فيها، وعدم مقارنتها بغيرها من اللغات القريبة منها أو البعيدة، مقارنة منهجية واعية.(15)

وقد ظلت الدراسات اللسانية على هذا المنوال، إلى أن تم إكتشاف اللغة السنسكريتية، في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، وكان اكتشافها يمثل لحظة تحول خطير في هذا المجال. ومنذ ذلك الحين بدأ عهد جديد في تاريخ الدراسات اللسانية، حيث تطور البحث اللغوي تطورا كبيرا مع نهاية القرن الثامن عشر، وخلال القرن التاسع عشر الميلاديين، وبخاصة في مجال الدراسات اللسانية التاريخية والمقارنة؛ حيث تمت المقارنة بين السنسكريتية وغيرها من اللغات الأوربية كاللاتينية والإغريقية، وكان ذلك على أساس ظاهرة التشابه بين خصائصها اللغوية المشتركة، كما تمت المقارنة بين تلك اللغات ولهجاتها، مما جعل الدارسين يستنتجون أن هذه اللغات تنتمي إلى أسرة لغوية واحدة، وتظمها شجرة عائلية واحدة، وبالوصول إلى هذه النتائج أخضعت اللغات للمقارنة؛ لمعرفة الخصائص المشتركة بينها وقرابة بعضها من بعض، وتصنيفها الى أسر لغوية تعود إليها كل مجموعة. وبهذا فقد تمخضت الدراسات اللغوية، خلال المدة الممتدة من نهاية القرن الثامن عشر إلى بداية القرن العشرين، عن ثلاثة مناهج هي: المنهج المقارن، والمنهج التاريخي، والمنهج الوصفي.(16)

وإذا كان المنهج المقارن يقوم على أساس دراسة الخصائص المشتركة بين اللغات واكتشاف ما بينها من قرابة، وتصنيفها على شكل أسر لغوية، تعود كل أسرة منها الى أصل واحد مفترض فإن المنهج التاريخي يتمثل دوره في دراسة وتتبع "أية

ظاهرة لغوية في لغة ما، حتى أقدم عصورها التي نملك منها وثائق ونصوص لغوية، أي أنه عبارة عن بحث التطور اللغوي في لغة ما عبر القرون".(17)

أما المنهج الوصفي فيقوم على أساس وصف ودراسة أية لغة من اللغات أولهجة من اللهجات في زمان ومكان معينين، دراسة أفقية لا رأسية، فيصف ظواهرها اللغوية المختلفة كما هي، بحيث يسجل الواقع اللغوي، تسجيلا دقيقا وأمينا، ولا يتعدى مرحلة الوصف في ذلك.(18)

وكان ظهور المنهج الوصفي يمثل لحظة تحول تاريخية كبيرة، في مجال الدراسات اللسانية الحديثة، حيث كان ظهوره بمثابة ثورة حاسمة على المفاهيم والمعتقدات التي كانت سائدة على ساحة الدرس اللغوي، ونهضة كبرى أدت إلى كثير من التطورات المهمة في اللسانيات الحديثة.

وقد ارتبط ظهور هذا المنهج، بظهور كتاب العالم اللغوي السويسري "فرديناند دي سوسير"F. de Saussure (1857-1913م)."محاضرات في علم اللغة العالم"Cours de linguistique générale_ الذي نشر عام (1916م) بعد وفاته، على يد تلاميذه. ويرجع الفضل لدي سوسير في الفصل بين الدراسات التاريخية والدراسات الوصفية، كما يرجع الفضل إليه في تأسيس المنهج الوصفي ووضع أسسه ومبادئه، التي كانت نقطة الانطلاق للسانيات الحديثة، حيث ضَمَّن محاضراته في اللسانيات، الأسس الدقيقة للمنهج الوصفي، كما رسم فيها الحدود الفاصلة بينه وبين المناهج اللغوية الأخرى بوضوح ودقة.(19)

ولقدأثار دي سوسير في محاضراته السالفة الذكر، العديد من القضايا التي تتصل بصميم اللغة، حيث يرى أنه ينبغي أن نحصراهتمامنا في ميدان اللغة فقط، وأن نجعل اللغة قاعدة نحكم بها على مظاهر الكلام الأخرى، وقد حاول بادئ ذي بدء، التفريق بين مصطلحات ثلاثة تتصل بالكلام البشري، وهي؛ "الكلام" بمعناه العام langage بوصفه ظاهرة كلية بشرية، والذي يميز فيه بين شيئين:"اللغة المعنية" langue و"الكلام الفردي" Parole. حيث يقول: << تجنبا لتعريف الكلمات تعريفات عقيمة، ميزنا أولا في نطاق الظاهرة الكلية التي يمثلها الكلام langage، بين أمرين

اثنين هما: اللغة langue واللفظ Parole.واللغة بالنسبة إلينا هي الكلام إذا ظرحت منه اللفظ، وهي مجموع العادات اللغوية التي تمكن المتكلم من الفهم والإفهام>>.(20)

فهذا التفريق بين المصطلحات الثلاثة، يهدف إلى تعيين ما يمكن إخضاعه للدراسة، وما يمكن طرحه منها. فإذا أخذنا المصطلح الأول الذي يمثل "الكلام البشري"، بوصفه ظاهرة كلية، فاننا نجده يتضمن؛ "اللغة" بوصفها نظاما لغويا اجتماعيا، و"الكلام الفردي" بوصفه ظاهرة فردية شخصية. فالكلام بمعناه العام يمثل، إذا، جانبين؛ جانبا شخصيا فرديا، وجانبا اجتماعيا. ولا يمكن تصور أحدهما بدون الآخر في إطار هذه الظاهرة الكلية (الكلام)، ولهذا فالكلام بالمعنى العام ليس هو المقصود بالدراسة لتضمنه الجانب الفردي، ويفرق دي سوسير بين اللغة والكلام بقوله: "إن اللغة والكلام عندنا ليسا بشيء واحد... وإذا أخذنا الكلام جملة بدا لنا متعدد الأشكال متباين المقومات موزعا في الآن نفسه بين ميادين متعددة بما فيها الفيزيائي والفيزيولوجي والنفسي، منتميا في الآن نفسه إلى ماهو فردي وإلى ما هو اجتماعي".(21)

أما المصطلح الدال على الكلام الفردي، أوالجانب الشخصي، فإن دي سوسير، يرى في فصل اللغة عنه، فصل ماهو اجتماعي عما هو فردي، وما هو جوهري، عما هو ثانوي وعرضي؛ لأن الكلام الفردي يصدر عن وعي المتكلم، فهو عمل فردي يقوم على الإرادة والذكاء، وهو بذلك لايمثل نظاما اجتماعيا أو واقعة اجتماعة لا دخل للفرد فيها، بل هي من عمل المجتمع ككل. وهو بهذا يريد أن يصل في النهاية إلى تعيين اللغة المعينة، التي ينبغي أن تخضع للدراسة، والتي ينبغي أن تكون حسب المواصفات التالية، فهي؛ "نتاج اجتماعي لملكة الكلام، ومجموعة من المواضعات يتبناها الكيان الاجتماعي ليمكن الأفراد من ممارسة هذه الملكة".(22) وهي:"كنز مودع عن طريق ممارسة اللفظ لدى جماعة من الأشخاص المنتميين إلى مجموعة واحدة، وهي نظام نحوي يوجد بالقوة في كل دماغ أو على نحو أدق في أدمغة مجموعة من الأفراد، وذلك لأن اللغة ليست تامة في دماغ واحد منها بمفرده، ولا وجود لها على الوجه الأكمل إلا عند الجمهور".(23) كما أنها ليست؛ "وظيفة من وظائف المتكلم، بل هي نتاج يتقبله، ويسجله دون أن يقوم بأي نشاط، وليس له فيها البته أي سابق إضمار، بل ليس لتفكيره فيها من نشاط سوى الترتيب".(24)

وصفوة القول، فإن الكلام، عند دي سوسير، يتضمن قسمين؛ أحدهما جوهري اجتماعي موضوعه اللغة، وهو نفسي بحت، والآخر ثانوي فردي، موضوعه الجانب الفردي من الكلام وهو نفسي فيزيائي، وأنه ما من شك في ارتباط هذين الجانبين بعضهما ببعض وأن أحدهما يقتضي وجود الآخر، وأن هناك تعلقا متبادلا بينهما، كما أن اللغة هي أداة اللفظ ونتيجته، إلا أن هذا كله لايمنع من القول بإنهما شيئان متمايزان عن بعضهما تمام التميز كما يرى ديسوسير.(25)

واللغة بهذا المفهوم هي التي تصلح ـ في رأي دي سوسيرـ للدراسة العلمية، وأنه ينبغي اقتصار الدراسة عليها وحدها، لأنها تمثل ظاهرة اجتماعية ونظاما لغويا مختزنا في ذهن الجماعة بالقوة. غير ممزوجة بالعوامل الفردية، ولا الحالات الشخصية الخاصة بالمتكلم، وبهذا يخرج الكلام البشري بمعناه العام لتضمنه ذلك إلى جانب اللغة، كما أن اللغة بهذا المفهوم لا تمثل جوانب فردية صرفة نابعة من إرادة الفرد ووعيه، وبهذا ينبغي إخراج الكلام الفردي، كذلك، من الدراسة.وإلى جانب محاولة دي سوسير التمييز بين المصطلحات السابقة لتحديد ما يمكن إخضاعه للدراسة من الكلام فقد تناول، كذلك، ما أسماه "العلامة اللغوية" Signe Linguistique ، أو الدليل اللغوي، الذي يرى أنه كيان نفسي يجمع بين شيئين، أو بالأحرى ذو وجهين ملتحمين التحاما شديدا ولا وجود لأحدهما دون الآخر. وهذان الوجهان هما ما عبر عنهما ب"الدال " Signifiant و"المدلول" Signifié فالدليل اللغوي، هو كل عنصر لغوي، يتضمن تصورا ذهنيا، وصورة سمعية، والدال والمدلول هما الفكرة وما يعبر عنها، أوهما؛ التصور الذهني، والصورة السمعية، ويوضح دي سوسير ذلك في قوله:"فكل عنصر لغوي هو بمثابة عضو صغير أو قطعة articulus، فيه تستقر فكرة ما في صوت ما، وفيه يصبح صوت ما دليلاعلى فكرة ما، ويمكننا بذلك أن نشبه اللغة بورقة، يمثل الفكر وجهها والصوت قفاها، فلا نستطع فيها عزل الصوت عن الفكر ولا عزل الفكر عن الصوت".(26)

كما ميز، كذلك، في دراسة اللغة، بين أمرين؛ دراستها في حالة الاستقرار في زمان ومكان معينين، أي دراستها أفقيا. وقد أطلق على دراسة اللغة بهذا المفهوم، مصطلح Synchronique للدلالة على المنهج، وقد ارتبطت دراسة اللغة في حالة الاستقرارفي زمان ومكان معينين بما عرف بالمنهج الوصفي. أما دراسة اللغة

رأسيا، أي في حالة حركة، حيث تتناول دراستها ظواهر التطور فيها، وقد أطلق على هذا النوع من الدراسة مصطلح Diachronique أي دراسة اللغة تاريخيا، ومنذ ذلك الحين ارتبط المصطلحان بالمنهج الوصفي والمنهج التاريخي.

كما يرى في النهاية أن الصورة المنطقية للدراسة اللغوية ينبغي أن تكون على هذا النحو:

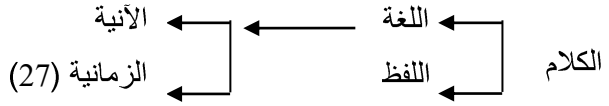

إن هذه القضايا، وغيرها، مما أثار دي سوسير في مجال الدراسات اللسانية كان لها تأثير كبير في تحول الدرس اللغوي قلبا وقالبا، من صورة كانت سائدة إلى صورة أخرى مغايرة لها، حددت موضوع الدراسة، ورسمت المنهج الذي ينبغي أن يتبع في ذلك. فموضوع الدراسة قد حدد في فقرتين موجزتين؟أصبحتا تمثلان مدخلا للدراسات اللسانية الحديثة.وهما :"اللغة شكل وليست مادة" (28) و"إن موضوع الألسنية الحقيقي والوحيد،إنما هواللغة في ذاتها ولذاتها" (29)،والعبارة الأخيرة هي آخر عبارة ختم بها دي سوسير حياته العلمية ومحاضراته اللغوية، وأما المنهج، فهو المنهج الوصفي كما سبق وأن حددنا بعض ملامحه .

وقد تطورت أفكار دي سوسير- فيما بعد - تطورا كبيرا، وتنوعت في مدارس لغوية مختلفة، جعلت منها منطلقا لها، فطورت في بعض المفاهيم، وأضافت إليها أخرى، لكن في إطار المنهج الذي وضحه دي سوسير. وقد عرفت هذه المدارس - بعد ذلك - بالمدارس البنيوية وقد أصبحت هذه التسمية علماعلىكل الدراسات التي انتهجت تلك المبادىء والأفكار، وسارت علىمنوالها. وكان على رأس هذه المدارس عدد كبير من علماء اللغة الغربيين، فكان على رأس مدرسة براغ مثلا، "تروبتسكوي" Troubetzkoy و "جاكبسون" Jakobson وعلى رأس مدرسة "كوبنهاجن" "هيلمسلف" L.hjelmslev و"يسبرسن"Otto Jespersen وعلى رأس مدرسة "لندن" "فيرث" J.R.Firth وعلى رأس المدرسة "الفرنسية" "اندريه ما رتيني" André Martinet و "لوسين طنيير" Lucien Tesnière و"بنفنست" E. Benveniste وغير هؤلاء كثيرون. وقد تناولت كل مدرسة من هذه المدارس جانبا

معينا في اللغة، وركزت على دراسته حتى صارت معروفة به. فمنها من ركزت على دراسة الفونولوجيا كمدرسة "براغ"، ومنها من ركزت على الجانب الشكلي للغة، كمدرسة "كوبنهاجن" ومنها من درست الناحية الوظيفيةللغة كالمدرسة "الفرنسية"، ومنها من اهتمت بالناحية الصوتية والدلالية كالمدرسة "الإنجليزية".(30)

أما الدراسات اللغوية الوصفية في أمريكا، فتعود إلى مصدرين أساسيين هما نظرية دي سوسير اللغوية، وأفكار النحاة الشبان التي ترعرعت في ألمانيا في نهاية القرن التاسع عشر. وقد اتجهت معظمها نحو<<اللغات المجهولة من المجموعة الهندية الأمريكية، مع اهتمام كبير بالنزول إلى حقل التجربة مساو لاهتمام الباحثين الأوروبيين في مجال اللهجات، وتطوير منهج علمي لدراسة اللغات غير المكتوبة، التي لا تعرف ظروفها التاريخية>>.(31)

وأما أعلام المدرسة الأمريكية، فعلى رأسهم: العالم الانثروبولوجي" فرانز بوعز"Franz boas، الذي تركزت دراساته على لغات الهنود الأمريكيين وقد جمع بين الدراسات اللسانية، الوصفية، والدراسات الانثروبولوجية، وقد دعا إلى ضرورة دراسة كل لغة على حدة تبعا لما تتميز به من خصائص. وقد ظل رأيه هذا سائدا في الدراسات الوصفية في أمريكا فيما بعد.

وتلميذه "ادوارد سابير"Edward Sapir، الذي جمع كذلك بين الدراسات اللسانية والدراسات الانثروبولوجية، وقد قدم العديد من البحوث عن لغات الهنود الأمريكيين وكان يعتمد في جمع مادته على المصدر البشري وكانت دراسته مبنية على الملاحظة والتصنيف والتحليل.(32) وقد مكنته طريقته في الدراسة من إضا فة ماأسماه"الشكل اللغوي" Forme Linguistique ، إلى اللسانيات الحديثة. وهو يرى أن "الأشكال اللغوية" ينبغي أن تدرس في ذاتها؛ أي بوصفها أشكالا، لا أن تدرس على أساس من المعا نى المتصورة ابتداء لكنه لم يغفل المعنى في كل خطواته التحليلية، حيث يرى أن دراسة "الشكل اللغوي" تقوم على شيئين أساسيين هما: التصورات الأساسية التي تؤديها اللغة في الاتصال بين الأفراد، والطرق الشكلية التي ترتبط بها هذه التصورات، وهذه الطرق الشكلية هي مايسميه العمليات النحوية. كما يرى أن المنهج العلمي ينبغي أن يركز على دراسة التراكيب الشكلية للغة، وهي تقتضي دراسة الأنماط في الصوت والكلمة والجملة. كما أنه رفض التقسيم التقليدي لأجزاء

الكلام، ولم يعدها "عالميات لغوية"، ورأى أن تصنيفاتها لا تمثل الوحدات الوظيفية الطبيعية للغات.(33) ثم جاء بعد"سابير"العالم اللغوي"بلومفيلد"L.Bloomfild الذي كان من أكثرالمهتمين بجعل دراسة اللغة دراسة علمية مستقلة، وقد أدى به هذا الاهتمام إلى الإسهام في وضع المناهج الأساسية للدراسات البنيوية وتطويرها، وتوضيح قوانينها، وقد قدم ذلك مفصلا في كتابه "اللغة"Language، الذي نشره سنة (1933م) وكان يمثل هذا الكتاب مصدرا أساسيا للدراسات اللسانية في أمريكا، وفي عدد من دول أوربا.

وقد تأثر بلومفيلد في دراسته للغة، بالمذهب السلوكي في علم النفس الذي يعتمد في تحليله على استكشاف سلوك الأفراد، من خلال موقف معين أو فعل ما، للتنبؤ بـ"الاستجابة" عند معرفة "المنبة" أو "المثير"، وهذا يعني أن السلوك الإنساني ترتبط معرفته بفهم الظواهر الفسيولوجية في سلوك الأفراد؛ أي بمعنى أن عمله يقتصر على مراقبة الظواهر الخارجية التي تخضع للقياس، من تطبيق مبدأ "المثير"و"الاستجابة" عليها.

وقد رأى بلومفيلد، في تناوله لعملية"الحدث الكلامي"من الوجهة السلوكية. أن أول خطوة في دراسة اللغة، هي أن نعد ها صورة من السلوك "الجسماني"، فكما يمكننا فهم هذا السلوك في إطار الظروف التي تحيط به، كذلك، يمكننا فهم الحدث الكلامي. كما رأى أن الدراسات اللسانية القديمة، دراسات تفتقد الناحية العلمية، لأنها دراسات استدلالية معيارية، وأن اللغة ينبغي أن تكون دراستها خاضعة لمنهج الوصف والاستقراء.(34)

أما الاهتمام بدراسة المعنى في اللغة، فيعده بلومفيلد أضعف نقطة في دراستها، لأن الجانب الشكلي للغة يمكن إخضاعه للدراسة العلمية، كما يمكن قياسه وفق مبدأ "المثير" و "الاستجابة" لكن المعنى لا يمكن إخضاعه لذلك وعلى هذا الأساس استبعد المعنى من البحث اللغوي. وبصورة عامة فإنه يلاحظ أن بلومفيلد يركز في دراسته على الجوانب الصوتية والصرفية والنحوية أكثرمن الجانب الدلالي في أعماله اللغوية، وكذلك في أعمال تلاميذه وأتباعه من بعده.(35)

وقد اتبعت هذه المدرسة في تحليلها للجملة، ما عرف بالتحليل وفق "المؤلفات المباشرة "Constituants immédiats، أو النهائية، وتتمثل هذه المؤلفات في الوحدات

الدنيا التي تتكون منها الجملة وهي المورفيمات. ويمكن توضيح ذلك في شكل مجرد، تتضح فيه العلاقات القائمة بين عناصر الجملة التالية: "الولد أكل التفاحة":

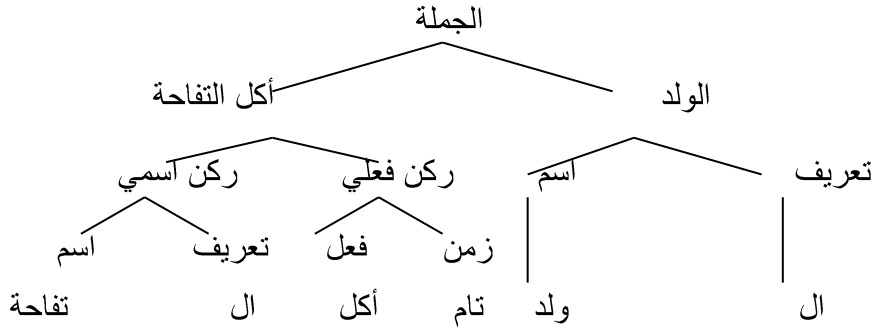

كما عُرفت هذه المدرسة اللغوية في مرحلة تالية بـ"التوزيعية" Distributionnalisme على يد تلاميذ بلومفيد وأتباعه أمثال:"هاريس" Harris، "هوكيت" Hockett، وغيرهما: بعد أن طوروا في أفكارها وأضافوا إليها مفاهيم جديدة تتصل بمفهوم التوزيع في اللغة.(36)

كما ظهر في أمريكا مدرسة أخرى، عرفت باسم المدرسة "التجميمية" Tagmemic، أو مدرسة "القوالب" وكان ظهورها رد فعل للبنيوية الشكلية التي بلغت ذروتها في عهد بلومفيد وتلاميذه من بعده، رغم وجود نقاط اتفاق كثيرة بين النظريتين. ومن الدارسين من يرى أنها امتداد للوصفية البلومفيلدية، وتحتل هذه النظرية مكانا وسطا بين البنيوية والنظرية التوليدية التحويلية. وقد أسس هذه النظرية وأرسقواعدها اللغوي الامريكي: "كينيث بايك" kenneth Pike وتقوم هذه المدرسة، في دراستهاللغة، بإجراءات متعددة تنطلق من وحدة أساسية نحوية تعرف ب"القالب" Tagmeme وذلك في أثناء التحليل. وهذا القالب يمثل ارتباطا بين موقع وظيفي ومجموعة من الوحدات التي تشغل هذا الموقع، وهذه الوحدات مؤلفة من وظيفة وشكل. وتعتمد هذه المدرسة في تحليلها للغة على المستويات التالية: الكلمة، والعبارة، والتركيب، والجملة، وهذه المستويات صارت اليوم معروفة ومتداولة في الدراسات اللسانية المعاصرة.(37) هذه نظرة موجزة

عن الدراسات اللسانية عند الأمم القديمة، وحتى نهاية القرن الثامن عشر الذي يمثل نقطة التحول في الدراسات اللسانية بوجه عام. ففي نهاية هذا القرن تم اكتشاف السنسكريتية التي كانت سببا في إيجاد منهجين متكاملين لدراسة اللغة، وهما المنهج التاريخي، والمنهج المقارن. ومع حلول القرن العشرين برز إلى الوجود المنهج الوصفي مع دي سوسير، وكان ظهوره بداية لعهد جديد في الدرس اللساني؛ فعلى إثره تعددت المدارس وتنوعت، مع احتضانها لأفكاره ومبادئه حتى صار منهج القرن العشرين في أوروبا وأمريكاوغيرهما.

هوامش :

1-انظر: علم اللغة نشأته وتطوره، د.محمود جاد الرب، القاهرة 1985م/ص5-6.
- والبحث اللغوي عند العرب، د. أحمد مختار عمر، القاهرة 1982م /ص78.

2-انظر: علم اللغة نشأته وتطوره 11-12.

3-انظر: المرجع السابق 16-17.

4-انظر: المرجع السابق 20-21.

5-انظر: فصول في فقه العربية، د. رمضان عبد التواب، القاهرة 1983 م/ص115.

6-انظر: المرجع نفسه 112

7-انظر: الإيضاح في علل النحو للزجاجي، تحقيق: د.مازن المبارك، بيروت 1982م/ص 89.

8- انظر: علم اللغة نشأته وتطوره 46
- وتشومسكي ومدرسته اللغوية، د.خليل عمايرة (مجلة الفيصل) ع96/مارس 1985م/ص108.

9- انظر: علم اللغة نشأته وتطوره 46-47

10- انظر: المرجع نفسه 48-50
وانظر معه:
Linguistique cartésienne,trad :de N.Delanoé et D.Sperber,: N.chomsky p:19,40-47 1969. ed. du seuil Paris

11- انظر: علم اللغة نشأته وتطوره 50 -51

12- انظر: المرجع نفسه53-54
وانظر معه: الأصول النظرية لمدرسة تشومسكي اللغوية، الشريف ميهوبي، مجلة المعارف(الرابطة الجزائرية للفكر والثقافة)،ع1/ماي1993م/ص 25-28.

13- علم الغة نشأته وتطوره 55
وانظر:linguistique cartésienne , p: 20-24
- و الأ صول النظرية لمدرسة تشومسكي اللغوية 25-32 .

14- انظر: أمهات نظرية فردينان دي سوسير، ملحق بكتاب (دروس في الالسنية العامة لدي سوسير)تعريب: صالح القرمادي، محمد الشاوش، محمد عجينة. الدار العربية للكتاب – تونس 1975م/ص351.
- والبنيوية في السانيات، د.محمد الحناش، دار الرشاد الحديثة، لدار البيضاء – المغرب 1980م/ص19 .

15- انظر: أمهات نظرية فردينان دي سوسير 351.

16- انظر: المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، د. رمضان عبد التواب، القاهرة 1982 م/ص181.
- وعلم اللغة نشأته وتطوره 63 - 70.

17- المدخل إلى علم اللغة 197.

18- انظر: المرجع السابق 181.

19- انظر: المرجع السابق 182.

- وأسس علم اللغة لماريوباي، ترجمة: د.أحمد مختار عمر، القاهرة 1983م /ص 235.

20- دروس في الألسنية العامة لدي سوسير، تعريب: صالح القرمادي،محمد الشاوش، محمد عجينة. الدار العربية للكتاب، تونس 1975م/ص 123.

21- السابق 29.

22- السابق 29.

23- السابق 34.

24- السابق 34- 35.

25- انظر: السابق 41.

26- السابق 173 - 174.

27- السابق 151- 159.

28- السابق 185.

29- السابق 347.

30- انظر: النحو العربي والدروس الحديث، د. عبده الراجحي، بيروت 1983م/ص 41 - 42.

- وعلم اللغة نشأته وتطوره 106-107، 118 - 122.

31- أسس علم اللغة لما ريوباي 236.

32- انظر: المدخل إلى علم اللغة 185. - وعلم اللغة نشأته وتطوره 152 - 153.

33- انظر: النحو العربي والدرس الحديث 33-36.

34- انظر: المرجع السابق 37 - 39، - والمدخل إلى علم اللغة 185-186.

35- انظر: المدخل إلى علم اللغة 186، - وعلم اللغة نشأته وتطوره 163.

36- انظر: علم اللغة نشأته وتطوره 163 -164.

37 - انظر: المدخل إلى علم اللغة 191-195، - وعلم اللغة نشأته وتطوره 172.

*لم أتطرق في هذه الدراسة إلى مدرسة تشومسكي اللغوية؛ لأني تناولت - قبل هذا – أصولها النظرية في دراسة نشرت في مجلة المعارف سنة 1993م تحت عنوان:"الأصول النظرية لمدرسة تشومسكي اللغوية" وهي من بين مراجع هذه الدراسة.